

إزالة الحاجز التوراتي أمام المفاوضات

أداة الضغط المثلى في حال ارادت واشنطن الضغط جدياً.

باريس - سمير قصير

لا السلام ولا ضده

يبقى ان الانتخابات لم تكن اقتراعاً من اجل السلام او ضده الا بشكل غير مباشر. اما الاسباب الرئيسية الكامنة وراء انتصار حزب العمل، فأهمها مرتبط بآليات السياسة الاسرائيلية اكثر من ارتباطه بضمون الخيارات المعروضة على الناخبين. ولعل العامل الاول في هذا الاتجاه اهتراء الليكود من الداخل، بعد خمس عشرة سنة على تسلمه السلطة. وقد انعكس هذا الاهتراء في الانقسامات الحادة المتفجرة بين اجنحته وفي الصراع العلني بين الطامعين في خلافة شامير، وزاد من الاهتراء عجز الحكومة عن حل مشاكل الاقتصاد خصوصاً لجهة استيعاب موجة الهجرة الروسية بل ظهر ان سياسة الليكود تؤدي الى تفاقم الازمة الاقتصادية بسبب الحساسية التي باتت تشيرها عجرفة شامير في واشنطن وفي قطاعات واسعة من الطائفة اليهودية الاميركية. في المقابل، ظهر حزب العمل كعنصر تطمين وتجديد في آن، ويعود هذا التحول في صورته الى معادلة دقيقة لم يستطع الوصول اليها الا قبل بضعة اشهر من موعد الانتخابات، وعندما كان بدا في طريقه الى الانقراض والمعادلة قامت، اولاً، على ازاحة شمعون بيريز من زعامة الحزب واستبداله بغريمه القديم اسحق رابين، فاذن كان بيريز يتمتع بشعبية اكبر بين الكوادر الحزبية، فانه لا يقدر على مزاحمة الليكود يمينا، خلافاً لرابين، رئيس الاركان في حرب 1967 وصاحب العلاقة المميزة مع

المفاجأة المرتقبة حصلت اذاً، وادت الانتخابات النيابية الاسرائيلية الى ما كان يرتجيه معظم المعنيين بعملية السلام، فأزالت الحاجز التوراتي الذي اقامه حكم "الليكود" امام تقدم المفاوضات العربية - الاسرائيلية وفق البرنامج الاميركي للحل السلمي. لكن هذه النتيجة لا تعني بالضرورة، بحسب المنطق التبسيطي الشائع، ان الانتخابات مثلت استفتاء شعبياً اسرائيلياً لمصلحة السلام، بل ان نتائجها تكشف مفارقة كبيرة، اذ يأتي الضوء الاخضر لاستمرار مساعي التسوية بعدما كادت تلك المسألة الاساسية ان تغيب عن السجال الانتخابي. لا يعني ذلك ان الصراع العربي - الاسرائيلي كان عديم التأثير في الانتخابات. فعلى رغم العجز العربي المتزايد منذ حرب الخليج والبادي بكل وضوح من خلال اداء الاطراف العرب في عملية التسوية، يبقى للقضية الفلسطينية او، بتعبير ادق، للاستعصاء الفلسطيني، وقع كبير في وعي المجتمع الاسرائيلي لذاته. ومهما ضعفت الانتفاضة الشعبية في الاراضي المحتلة، فقد صار واضحاً لمتوسط الناخبين الاسرائيليين ان مقولة "ارض اسرائيل الكبرى" تتطلب حتى تتحقق تضحيات جمة على المستويين الاجتماعي والاقتصادي وان غياب المرونة يعرض علاقات اسرائيل الدولية للخطر. ولا شك ان الازمة التي نشبت بين الادارة الاميركية وحكومة اسحق شامير حول مسألة تجميد المستوطنات وضماتات القروض، شكلت حافزاً للكثير من الناخبين وان تكن واشنطن اججت عن استخدام ادوات الضغط الصريح، ويذكر في هذا المجال ان ادارة الرئيس جورج بوش لم تنطرق مرة الى الدعم السنوي العادي المقدم الى اسرائيل والذي يمثل

عن الخريطة السياسية مفاجأة كبيرة لكل من يتابع الحياة الحزبية في اسرائيل. يضاف الى ذلك ان تقدم "تسومت" ينسب الى مواقف ايتان من تسلط الحركات الدينية والى سمعة النزاهة التي يتمتع بها اكثر مما ينسب الى برنامجه الخاص بمستقبل الاراضي المحتلة.

"شركيون" و"غريبيون"

الى ذلك، يسجل ان تجدد حزب العمل ازداد اهمية لتزامنه مع تحولين كبيرين في التركيبة الاتنية - السياسية للمجتمع الاسرائيلي. التحول الاول هو بالطبع الهجرة الروسية، وان يكن من السابق لأوانه تقويم اتجاهات التصويت في هذا القطاع بالدقة اللازمة. ويجدر التنويه هنا بأن معظم التحليلات التي كانت شائعة عند بدء موجة الهجرة كانت ترجح ان يصب تدفق الروس في خانة الليكود، بسبب حساسية المهاجرين المفترضة ضد كل ما يذكر باليسار والاشتراكية. ثم عادت وانقلبت التكهانات في الاسابيع الماضية، فأبرزت غياب الدافع الايديولوجي عند الروس ونبذهم التسلط الديني، وصار يرجح ان يصوتوا ضد الليكود لمعاقبته على عجزه عن توفير فرص العمل والسكن الملائمة لهم.

اما التحول الثاني، فهو الحصول في وسط اليهود الشرقيين، وقد يكون العامل الاساسي في نجاح حزب العمل بعدما كان التصويت الشرقي سبب وصول مناحيم بيغن الى السلطة عام ١٩٧٧. وتفيد التقديرات الاولى لاتجاهات الاقتراع في المدن الصغيرة ذات الغالبية الشرقية خصوصاً، ما يسمى "مدن التطوير"، ان الليكود انحدر فيها من ٢٩٪ الى ١٦٪ في حين صعد حزب العمل من ٢٩٪

الولايات المتحدة وركن اتفاق فصل القوات مع سوريا. كل هذه الصفات تتلخص في اعتباره، من طرف قطاعات واسعة من الاسرائيليين، احد ابرز رعاة "الامن" الاسرائيلي في وجه العرب، وربما ابرزهم على الاطلاق، بيد ان المعادلة الناجحة قامت ايضاً على بروز الجيل الجديد في انتخابات الحزب الداخلية، وتالياً في تشكيل لائحته الانتخابية، ورموز هذا الجيل هم في اغلب الاحيان على نقيض رايبين، على غرار ابراهام بورغ، المصنف في المرتبة الثالثة على اللائحة او حايميم رامون الذي تبعه بقليل، مما يشكل عنصر استقطاب للرعييل الجديد من الناخبين. كما ان تزعم رايبين لحزب العمل فتح المجال لتكتل اليسار لتأكيد شخصيته المميزة.

ومع تجديد صدقيته، استطاع حزب العمل تعميق ازمة الثقة التي يعانيها الليكود، كذلك توفير اطار جذاب تتجه اليه الاصوات الماربة من درب شامير، بدل ان تذهب لمصلحة اليمين المتطرف، وهو الاتجاه الذي غلب في الدورة الماضية للانتخابات مع بروز حزبي "تسومت" و"موليديت" ولم يكن احتمال تكرار هذه الظاهرة مستبعداً هذه المرة. فدرجة الاحتقان الاجتماعي جعلت الكثير من الخبراء يتوقعون، تقدماً لليمين المتطرف.

غير ان احزاب اقصى اليمين لم تحصل مجتمعة الا على مقعدين اضافيين، واذ كان حزب "تسومت" بزعامة رفائيل ايتان رئيس الاركان الاسبق انتقل من مقعدين الى ٧ مقاعد، فانه حقق جزءاً من تقدمه على حساب الحزب التاريخي لليمين المتطرف "هتحياه" الذي يتزعمه يوقال نعمان، احد اباء البرنامج النووي الاسرائيلي، وغيولا كوهن عضو الكنيست الموتورة منذ عقود. واختفاء الحزب الاخير

تركيز القطاع الاقتصادي في موقع الاعتدال.

انفتاح على العرب

انطلاقاً من هنا لا بد من اقول ان نتائج الانتخابات ، وان تكن لا تمثل في اي حال من الاحوال استفتاء لمصلحة السلام، انما تفتح آفاقاً جديدة امام علاقات الاسرائيليين بالعرب، وبالاخص بالفلسطينيين. ويكتسب اداء تكتل اليسار "ميريتس" اهمية بالغة من هذه الناحية. صحيح ان التكتل لم يسجل تقدماً ملحوظاً في عدد الاصوات وانه حصل على مقاعده الاضافية (٢ وربما ثلاثة مقارئة مع مجموع نواب "راتز" ومابام" و"شينوي" في الدورة الماضية) بسبب تقديمه لائحة موحدة واستفادته من ازمة الحزب الشيوعي. اي ان نتيجته لا تشكل اختراقاً من "معسكر السلام" الذي يعتبر "ميريتس" تأطيراً برلمانياً له. الا انه لم يعد يمكن حصره في دور هامشي كما في السابق، اذ بات اليسار القوة الثالثة في الكنيست.

قد يسعى رايبين الى تقليص دور اليسار في الحكومة. لكنه لن يستطيع تجاهل حجمه لا سيما وان الكتلة البرلمانية لحزب العمل نفسه تضم ايضاً عدداً من الشخصيات المنتمة الى "معسكر السلام" والدافعة في اتجاه تعزيز التحالف مع اليسار ونذ المساومات مع اليمين. وبالفرض ان ينجح رايبين في تجاوز الوزن الجديد لرموز "معسكر السلام" على مستوى القرار، فان وجود اكثر من عشرين نائباً من أقصى "الحماثم" (من ميريتس كما من العمل) لا بد ان يؤدي على الاقل الى تنفيس العصبية المنتهمة ضد العرب وفي المرحلة الاولى الى الفناء القانون الذي يحرم الاتصال بمنظمة التحرير. وتجدر الإشارة

الى ٤١٪. ويكمن سبب هذا التحول، بلا ريب، في ازمة الثقة الناشئة بين الليكود ومناصريه من الشرقيين، والتي عبرت عنها قبل اسابيع استقالة ديفيد ليفي من الحكومة ويتضح من نتائج الانتخابات ان آثار تلك الاستقالة لم تستوعب، على رغم رجوع الزعيم المغربي الاصل عن قراره بعد ايام معدودة. بل على العكس، قد يجد ليفي بعد هذا الدرس انه من المفيد الانشقاق عن حزبه. الا انه فقد اليوم الكثير من قدرته على المناورة بعد فشل الجزء الاكبر من المرشحين المحسوبين عليه الذين كانوا صنفوا في المراتب الدنيا للائحة الليكود، في حين ان حزب العمل تمكن، بفعل حصوله على هذا المقدار من المقاعد، من تمرير عدد لا بأس به من مرشحيه الشرقيين، ويشير التحول في التصويت الشرقي الى ان تجديد حزب العمل كان كفيلاً بتخفيف حدة النقمة "السفارديّة" ضد ما كان يعتبر حزب الاشكناز في الوقت الذي بدا من الاولوية المعطاة للروس ان الليكود لا يقل "اشكنازية" عن خصمه.

وقد يكون لهذا الاعتدال الجديد في الوسط السفاردي كبير الاثر على مستقبل المجتمع الاسرائيلي في الامد البعيد، اذا ما تأكد في الاشهر والسنوات المقبلة. ذلك ان اليهود الشرقيين من مغاربة ويمنيين وعراقيين هم اكثر قطاعات المجتمع قابلية للتعايش مع المحيط العربي لجهة عيشتهم وطبيعة علاقاتهم الاجتماعية، وبفض النظر عن العقد الايديولوجية التي تدفعهم، في جو التوتر السائد ومن غير اي مبرر تاريخي، الى "الانتقام" من العرب. ومما لا شك فيه ان ائتلافاً حكومياً مؤلفاً من حزب العمل وكتله اليسار وحزب "شاس" الذي يمثل المتدينين الشرقيين، من شأنه المساعدة على

وفي هذا المجال، تردد في اوساط قريبة من ابو مازن، منسق العلاقات الفلسطينية مع "معسكر السلام" الاسرائيلي ان المنظمة ستسعى الى ابلاغ محاورها المعادين ضرورة التساهل مع الاحزاب الدينية خصوصاً مع "شاس" في المسائل الخلافية، حتى لا يتم التفريط بالفرصة المتاحة. ولكن يكون من المستغرب ايضاً ان يتوجه ابو مازن او الرئيس عرفات نفسه الى المغرب لنحض الملك الحسن الثاني على استخدام النفوذ المعنوي الكبير الذي ما زال يتمتع به العرش العلوي في وسط الاسرائيليين الذين هم من اصل مغربي، بهدف اقناع "شاس" وربما ديفيد ليفي بخوض تجربة التحالف مع حزب العمل وتكتل اليسار.

ينقئ ان راين لم يلتزم الا بتحقيق الحكم الذاتي وتجميد الاستيطان في حدود خطة ايغال آلون القديمة (١٩٧١) ولن يقبل بطيية خاطر الذهب ابعده من ذلك. بل انه قد يظل ما دون برنامج حزبه، متحججاً بضرورات الوحدة الوطنية. لا يكفي اذاً وصول راين الى السلطة حتى يصير القول في المكبول" وان يكن الشرط كافياً لتحرير ضمانات القروض الاميركية. وعليه يفترض في الاطراف العرب المعنيين التزام حد ادنى من الحذر لكن التصرف العربي، خصوصاً الخليجي، في المرحلة السابقة الانتخابات لا يبشر بإمكان تسليح الاطراف العرب بالحكمة اللازمة ويخشى على العكس ان يبادر العرب او بعضهم الى تسليم راين قبل القبض منه: كما حصل مع شامير، فاذا فعلوا سيكون مثل هذا التصرف كفيلاً بتعطيل الانجاز المتمثل بانسياب هم السلام الى قلب النظام الاسرائيلي وتحويله ضرباً من الترف الفكري.

الى ان الكتلة البرلمانية "ميريتس" تضم شخصيات معروفة باتصالاتها مع منظمة التحرير وبتأييدها لقيام الدولة الفلسطينية، وشولاميت الوبي زعيمة التكتل هي نفسها من اشد المتحمسين للحوار مع المنظمة. وفي صفوف حزب العمل ايضاً ادى حجم الانتصار الى دخول عدد من محاورى المنظمة المعمودين الى الكنيسة. ويرجح ان تكون في عداد هؤلاء يائيل دايمان ابنة موشي دايمان التي جهرت بخروجها عن تاريخ ابيها وان تكن تستفيد من هالته وراحت تمشي في خطى خالها عازار وايزمن، عاملة على ما يبدو بالنصيحة التي اعطاها اياها الدكتور نبيل شعث مستشار السيد ياسر عرفات في احد اللقاءات الفلسطينية - الاسرائيلية الاولى بعيد انطلاق الانتفاضة.

ويتردد ان حزب العمل سيبادر الى ارضاء هذا التيار رمزياً بمنح وايزمن الذي كان اعلن اعتزاله السياسة، منصب رئيس الدولة عند خلو، وهو منصب فخري كما هو معروف.

ومن نافل القول ان منظمة التحرير تثنى التطور الناتج من الانتخابات. فمع سقوط شامير ينفتح الوضع الفلسطيني على احتمالات جديدة تسمح للمنظمة بالعمل من اجل ان يكون الحكم الذاتي اطاراً لانتقال فعلي للصلاحيات وليس هدفاً في ذاته لا يفيد، كما في تصور شامير، سوى لتبرير استمرار الاحتلال. كما انه يتيح لها رفع سقف تحركها في المفاوضات من خلال اشراك مباشر لمن هم مبعدون عن الجلسات الرسمية.

من جهة اخرى، يخفف الانفتاح الاسرائيلي، ان تمت ترجمته ائتلاقاً حكومياً ملتزماً نجاح الحل السلمي، من الاختناق الذي تعانيه المنظمة عربياً.